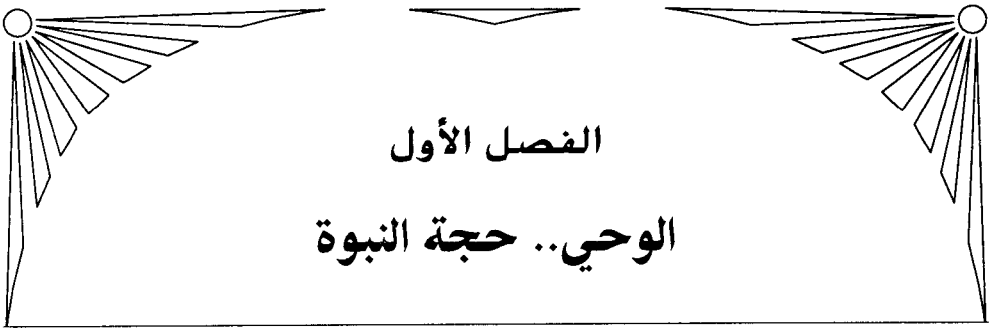

الفصل الأول

الوحي.. حجة النبوة

المفصل الأول من الوحي

لنتفكر في المفصل الأول من الوحي كما نقلته المحدثة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها : **(فجاءني الملك فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارىء، فأخذني فغطني (ضمّه وعصره) حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: إقرأ، فقلت: ما أنا بقارىء، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارىء، فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني فقال:** ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: 1] فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة وأخبرها الخبر: لقد خشيت على نفسي..[1]

ثم ذكرت رضي الله عنها مقالة خديجة له وذهابها رضي الله عنها معه ﷺ إلى ابن عمها ورقة بن نوفل وما علق به ورقة على المشهد، وما أبداه من الملاحظات والتنبؤات المستقبلية، وما أظهره من التأييد والوعد بالنصر له في مواجهته للقوى المضادة التي ستتصدى له حتماً كما تصدت للنبيين عليهم السلام من قبله.

إن تنزل الوحي وتفصيلية الحركة المتميزة به، وما قامت به حواسه ﷺ من دور في حركة هذا المفصل غير المرئي للآخر وذلك بمعاينته للملك، والشعور

(1) حديث صحيح رواه البخاري، كتاب بدء الوحي، برقم 3، ومسلم برقم 160 (وصحيح البخاري: هو أصدق نص بعد القرآن الكريم إذ اتبع جامعه أفضل الطرق العلمية والتجريبية والنفسية والتحقيقية في جمع أحاديثه).

بجذبه وشدّه وعصره وضمه، ومحاورته له، وانتزاع الملك الاعتراف من لسانه بأميته وعدم علمه بالقراءة، وما أعقب ذلك في كيانه من تبدلات سببت له الرعدة والارتجاف والإحساس العارم بالتعب والإجهاد والخوف والتوجس مما حدا به إلى اللجوء الفوري إلى الفراش نأياً عن واقعه، واندهاشاً لما أصابه.. علاوة على توقفه عن الإدلاء برأيه فيما وقع له وعدم تقويمه للأمر أو تعريفه أو بيان معقباته سوى تعقيبه المقتضب: **(لقد خشيت على نفسي)**، وموافقته على مصاحبة خديجة الى دار ابن عمها لاستشارته في الموضوع بعد عرض الأمر عليه بكل ملابساته وتفاصيله... كل تلك الشكليات والمؤثرات والتوجهات الموزعة هنا وهناك تُعلم بأمر علمي ثابت، وتوجه العقل إلى قضية في دائرة البحث العلمي في أمور التاريخ المتواترة لا يسع العالم إغفالها أو تجاوزها والمرور العابر بقصتها دون تفكر، إنها تبين بلسان الحق أن الوحي أمر من الغيب آت بدون إرادة الرسول ﷺ واجتهاده، بعيد عن أمله وتطلعاته، غير معهود في حياته وتصوراته، ولو أنه ﷺ كان على أدنى قدر من العلم بالوحي قبل تنزله، ولو أنه سمع أو قرأ أو تصور أو تخيل شيئاً من خصائصه وطرق تنزله لما أصابه ما أصابه.

ولنا أن نسأل علماء النفس والاجتماع وكل ذي علم بشيء من حياة الإنسان الداخلية: لو كان القرآن الكريم (الوحي) مشروعاً تأليفياً أو إبداعاً عصرياً أو توصلاً فكرياً أو عملاً أدبياً أو تصوفاً روحياً أو إملاءً إنسانياً، أكان البدء به والأمر بكتابته يبعث فيه ﷺ الشعور بالراحة والسكون والاستقرار؟ أم يورثه الانفعال والتعجب؟ ألا ما أبعد المسافة النفسية بين توقع الخير وتوجس المجهول، وشتان بين نور الأمل وغمرة الرجاء بتبوأ أسمى مقام وأبرزه - إن كان يعلم ما ينتظره، وبين الوجل من المستقبل والمصير غير المعلومين -، ذلك الأول ينوّر جنبات النفس، ويملؤها سكينة وسلاماً وتآلفاً مع القدر المواتي، واستبشاراً مفرحاً، والثاني يفاجئ الإدراك، ويباغت الفعل العقلي،

ويزيل سكون النفس وثباتها، وفي آية لاحقة يبيِّن الله سبحانه ﷺ أنه لم يكن يدري ما سيؤمر به: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: 52]. . في أمر كهذا قد يفقد الإنسان تمييز عارضه ووضعه، فلا يدري أهو مقبل بما أصابه على نعمة فيحمد الله على فضله؟أم ناله أمر لم يُسبق ولم يؤلف فيخشى على نفسه، وتنسرب الخشية من منافذ حسه لتهزه من الداخل وتؤثر على أمنه الكوني وتشيع التساؤل الحذر في نفسه؟ وهكذا كانت حالة محمد ﷺ عقب (حراء)، لقد كادت شدة اللقاء تفزعه، وصار مرتاعاً، حتى طمأنه ذكر ربه وهداه إلى الحق من أمره فيما بعد!.

فإن كان الوحي من إنشاء محمد ﷺ وكسبه: أكان يراوده حين التنزل الأول شعور الفخر والإعجاب والمباهاة بنفسه، أم ينتابه الخوف الذي يأخذ عليه سكونه المعتاد ويضطره إلى التزمل والتلفف بالثياب لتزول رجفة فؤاده؟ وهل كان ينطلق إلى المجامع والمحافل والنوادي والميادين الرحيبة ليعلن على الملأ مشروعه ويعلم بعبقريته ذوي قرباه وجلّاسه؟ أم ينزوي في مساحة من أركان داره مرتمياً على فراشه، متغطياً بدثاره، منشغلاً بأمر نفسه.

أما إن ظن به شاك ﷺ أنه كان متكلفاً مصطنعاً لتلك الحالة النفسية ليكسب إيمان قومه بدعواه، فإن ملابسات يوم الوحي تقذف باليقين على ذلك الظن الباطل لتزيل إلقاءاته وتحبط مناورته وذلك:

أولاً: لقد كان ﷺ في غنى عن إخراج أمر الوحي وافتعال ما يقتضيه من الشعور الأليم، إن أراد به كسب إيمان القوم بنبوته، لجهل عامتهم بناموس النبوة، فقد جاء ﷺ على فترة من الرسل في محيط جاهل بعلوم الإيمان وأخبار الأنبياء عليهم السلام.

ثانياً: لو افترض أحدهم - جدلاً - أن القوم كانوا على علم بطرق نزول الوحي على الأنبياء السابقين عليهم السلام، فلماذا يتمثل ﷺ أشد الطرق، وأرهبها للنفس، وأبعدها عن المألوف العادي؟، ألم يكن باستطاعته أن يعفي نفسه من

هذا العناء لو كان الأمر تخيلاً مصطنعاً؟، فلقد كانت طرق أخرى للوحي أيسر من تلك الطريقة، الله ﷻ يلقي إلى رسوله كلامه دون وسيط، ملك ينفث في الروع من غير أن يراه الرسول، ملك يتمثل رجلاً فيخاطب الرسول ويأخذ عنه، لكنه شهد الملك بعينيه وهو شديد القوى، وهو لم يحث الخطى ويغذ السير نحو أقرب ناد أو مجلس، ممتقع اللون، متأثر الملامح، لايلوي على شيء، ليعلم قومه ويطلعهم على وضعه، فتكون هيئته ونبرة كلامه أدعى إلى إيمانهم بصدقه وقبولهم لرسالته، فقد صبر ﷺ على ما وقع له، وكتمه عن الناس، وهرع إلى داره سراعاً بخوفه ليخبر خديجة بما جرى له... أخبرها لتُطمئن قلبه، وتسكن نفسه، وتعيد إليه بعض الثقة والثبات والقرار.

غير محمد ﷺ قد يفعّل الخداع والتضليل والتلبيس على فكر وشعور الآخر والمكر بعقله ليأخذ عن طريقها متعاً وامتيازات وزخارف يخص بها نفسه وأهله وذوي قرباه وأحبابه.. لكن الرسول ﷺ قد عرف بالصدق وكسب ثقة الآخر به حتى قال الله سبحانه في إثبات هذه الثقة بأنهم لا يكذبونه كفرد وإنسان بل هو جحود بآيات الله سبحانه: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: 33].

لقد بيَّن الرسول ﷺ الأمر لخديجة كما هو، لم يزد شيئاً، وامرأة كيّسة مثل خديجة عاشرته ﷺ خمس عشرة سنة لا يعقل أن تخفى عليها نياته وأخلاقه ومشاريعه وخططه وحالته النفسية، فقد يستطيع رجل عادي أن يناور الخلق ويصطنع التزاماً في معاملتهم، ويخفي عنهم ما تشتمل عليه نفسه من غايات خفية أخرى، وإن كان ذلك شديد العسر، نادر الوجود، ولكنه يعجز عن تمرير خطته على من ترافقه طول حياته أو حياتها، وتشاركه في سرَّائه وضرائه، وتطّلع على الكثير من سره وجهره، وتتعامل معه في جميع أحواله.. إذ المرأة سكن للزوج يرفع في بيتها تكلفه ولباس مظاهره التي قد يجامل بها الناس في الخارج حاشا للرسول ﷺ، فلو كانت خديجة تشك في

صدقه وإخلاصه وتظن به أمراً، لفسرته بالخيال الخصب أو تعتقد إصابته بمس من الجنون في أحسن الحالات، ولم تكن لتقول له بلهجة واثقة: «كلّا والله ما يخزيك الله أبداً»[1]، ولماذا؟ لأنه ذو معدن طيب... وهكذا كان!.

ولو كان الوحي الذي تنزل في (حراء) استبطاناً في التفكير، أو ما يسمى بالرياضة الروحية التي تدمج الإنسان بعالم غيبي بواسطة إضعاف الجسد وتمارين معينة، ولجوء إلى المنامات والتخيل، فتمثلت أمام ناظريه في الرؤيا أو اليقظة صوراً، لأثّر ذلك الشهود الصوري في نفسه وعزله عن واقع الحياة وأزهده في معيشة الأرض، وتعوّد على معيّة تصوراته.. لكن الحق دعاه إلى ترك التزمل والتدثر وتبديل حياته السابقة، فأخذ الاستعداد النفسي والجسمي وبالسرعة المقتضية لقيام الليل وإنذار الناس... وذلك يقتضي أن الأمر لم يكن بإرادته.

فسورة المدثر في بدايتها آيات متتابعة تدعوه إلى العمل، وتحثّ على النشاط والحركة في الداخل بتغيير كلي، والحركة الخارجية بإنذار الناس وإصلاح ما هم عليه، لم يسع محمد ﷺ إلا أن يتوجه سراعاً، ثم كانت آيات أخرى دفعته قدماً في الطريق الذي لولا الله ﷻ لما مشى فيه محمد ﷺ خطوة، وما كانت له فيها روحة أو غدوة.

خصائص أخرى للوحي

1 - فقه التنزيل:

قال الله ﷻ: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: 106].

(1) رواه البخاري، كتاب بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، رقم 3، ومسلم: 160.

لقد جرت العادة في المشروعات الإنسانية أن أصحابها لا يعلنون عنها إلا بعد إكمالها وبذل كل الجهد في إخراجها، لكي تقع من قلوب الناس موقع القبول والإعجاب والتعظيم، فما لم تكتمل الفكرة العلمية أو الأدبية أو الإصلاحية في فكر صاحبها - في الأقل - فإنه لا يدعو غيره إلى الإيمان بها بل له الالتزام بمنهاجها في حياته العامة أو إحدى نشاطاته الخاصة. . . فالذي يؤلف كتاباً لا يعلن عنه إلا بعد إتمامه وطبعه ونشره وتوزيعه ليتسنَّى للجماهير اقتناؤه، ويتيسر للباحثين تقويمه وإبداء الرأي فيه، والذي يدعو إلى فكرة إصلاحية بشرية لا يشرع في عمله ولا يقوم بتجميع الناس من حوله إلا بعد أن يضع المنهاج الأساسي لفكرته ويرتب التفاصيل الرئيسة لدعوته، ويبرز الأمور الجاذبة في منهاجه، ويبذل وسعه في سد الثغرات التي قد يتسرب منها الشك إلى عقول مدعويه، ثم يراعي أحكم الخطط في عرض بضاعته ليضمن بذلك ثقة الناس بتكامل دعوته، ومنهاجية تفكيره، وصواب عقله، وسداد رأيه، وتمكنه من أمره.

فإذا ما وجهنا النظر في ملابسات تنزل الوحي تحقق لدينا بأن الوحي إن هو إلا: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: 42]، لم يملك محمد ﷺ الخيرة في تبليغه، وإلا فهل من المألوف في العرف أن يؤلف أحدهم كتاباً أو نظرية فلا يظهر إلا كلمات من ذلك[1]، ثم يراجع المحققين ويسأل المختصين للتثبت من قضيته، ثم يصمت بعدها صمتاً طويلاً[2]، ثم فجأة ينطلق مسرعاً ليدعو قومه إلى الإيمان بكل ما سينبؤهم أو يحيطهم علماً بما سيفرض عليهم. . ولا يعدهم دنيا يصيبونها أو عرضاً قريباً ينالونه مقابل إيمانهم. .؟ وحين أعرض

(1) ممثلة في صدر سورة العلق إلى قوله تعالى: ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: 5] وهي أول ما نزل من القرآن، أسباب النزول للواحدي ص: 5 - 6 طبعة مؤسسة الحلبي وشركاؤه 1388هـ - 1968م.

(2) في الفترة الواقعة بين نزول سورة العلق وسورة المدثر التي نزلت بعدها.

عنه المعرضون وصد عن سبيله الصادون لم يحاول تجمعيهم على هوى، أو استمالتهم بباطل، أو تألف قلوبهم بشيء من التنازل عن شريعته ومنهاجه، وهو يأسى ويتحسَّر على جحودهم وإصرارهم عى ضلالهم. . . هل يكون مثل هذا إلا نبياً مأموراً غير مختار لعمله!؟

ولم يكتمل الوحي إلا بعد مضي ثلاث وعشرين سنة على يوم (حراء) تتنزل آياته حسب الظروف الداعية والمناسبات العتيدة والوقائع الجارية، ذلك لكي يتحقق ما يدعو إليه في عالم الواقع، ويسري حكمه في دنيا الناس الواسعة، وتنصبغ بصبغته آفاق الحياة المترامية. . يحدث كل ذلك على مهل وفي تؤدة، وليُعلم أن هذا الوحي من أمر الله سبحانه الذي اقتضى علمه ورحمته أن يتزَّكى ويتفقه الإنسان وترتفع درجته في الإيمان والتقوى والعلم بكلمات ربه الطيبة التي تجد لها القبول في نفسه مع الزمن، وتطلق كافة الطاقات المخبوءة داخله، وتوجه سائر النشاطات التي يبديها في معايشه، وهذا من شأن الله سبحانه، أما الناس ففي الغالب يواجهون الآخر بفكرهم جملة وتفصيلاً، فمن سماتهم التعجل واستبطاء النصر مما يجعلهم مندفعين إلى إلزام غيرهم بما يؤمنون طوعاً أو كرهاً.

2 - الوحي.. والإرادة المحمدية:

انقطع الوحي عنه ﷺ [1] فرأت المعارضة هذه الفرصة تنفعها فأشاعت بين الناس أن الله سبحانه قد تخلى عنه، وانقطع المدد، ونفد رصيده من العلم، وغار معينه من الكلام، وأن ربه قد هجره! فكيف تخرس ألسنة

(1) انقطع الوحي فترة من الزمن لحكم: قد تكون إثبات تنزيل الوحي من الله سبحانه، أو ليزداد ﷺ استمساكاً به، أو لتحفيز قلبه لتلقي القول الثقيل الذي سيلقى إليه، أو لزيادة توكله ولجوئه ﷺ إلى ربه، أليس هو القادر على أن يذهب عنه الوحي: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾ [الإسراء: 86].

المرجفين؟ ويلوذ ﷺ بالصمت، لم يصدر منشوراً يدافع به عن نفسه ويؤكد صلته بربه، ولم يطلق بياناً ببقائه نبياً، ولم يتقوّل.

وسئل ﷺ أسئلة تعجيزية فوعد السائلين بالإجابة عنها في الغد على أمل تنزل الوحي إليه، لكن الوحي لم ينزل حسب توقيته فأشاعوا بأنه لم يفِ بوعده، فشككوا في نبوته، وكان شيئاً من التحدي القائم الشامت، ولكنه ﷺ توقف عن البيان فلم ينطق عن الهوى، ولم يلجأ إلى مصدر علمي وديني خارجي قريب أو بعيد، ومهما كان الجهد والثمن! علّه يجد لتلك الأسئلة أجوبة تلجم أفواه من يشكك في صدق الأنبياء والمرسلين عليهم السلام! بل فوّض أمره إلى الله سبحانه، وجاءه الوحي بأجوبة السائلين مقدمة بتعليم له ﷺ في التوكل عليه سبحانه وتعليق الأمور بمشيئته.. إنها النبوة؟ وهو ﷺ لا يميل ويحيد أو ينحرف عن سواء السبيل، وليس له الحق في الاجتهاد في اختيار كيفية التنزيل، أو تثبيت زمانه، أو مكانه، أو ظروفه وملابساته؟

وطُلبت منه آيات تعجيزاً، وذكر القرآن الكريم طلباتهم، لكنه سبحانه لم يستجب لهم، وتلك حجة أخرى على أن كل شيء كان بإذن الله سبحانه الذي لم يرسل بالآيات كما أرسلها لغيره.

3 - الوحي.. وشعوره الخاص ﷺ:

لو لم يكن الوحي من الله سبحانه لما تنزلت فيه آيات تصوّب بعض أفعاله، ولما ذكرت فيه آيات تعاتبه لتركه اتخاذ (الموقف الأول) في بعض اجتهاداته، أو تعقب على بعض قراراته العلنية، أو تكشف وتوجه نياته القلبية، أو تذيع على العالمين سراً له على الملأ.. ولقصر على المواضيع العلمية لينال رضا الناس عنه وثقتهم بعلمه وعمله، وكأمثلة على ما نقول: ما ذكره بعض الرهبان طعناً وهو: أننا وغيرنا لا نزال نقرأ إلى الآن سورة (عبس)، وما هي سورة عبس؟ إن اسمها ينطق بما فيها ويفصح عن مراميها،

فقد افتتحت وبدون مقدمات بحساب وعتاب له ﷺ وتوجيه إلى الأصوب والأفضل في معاملة رجل فاقد البصر حث خطاه إلى مجلس النبوة ليستزيد علماً وذكرى.. وكان ﷺ مشغولاً بدعوة آخرين صادف وجودهم في مجلسه. إن السورة ابتدأت هكذا: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠﴾ [عبس: 1-10] إلى آخر السورة.

فكيف يوجه هذا العتاب لنفسه في مثل هذه الحالة حتى ليذكر مشية الرجل الأعمى وسعيه الحثيث الذي يشير إلى رغب في العلم ويذكر مشاعره المستورة ونياته الخيرة ودوافعه الطبية واستعداده الكامن لقبول الهدى فهو: (يَسْعَى. وهو يَخْشَى) و: ﴿لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤﴾ [عبس: 3-4]، حتى لتبدو هذه الاحتمالات اليقينية ورقة دفاعية تثبت حقه وتفرض إعطاءه حظه من الرعاية.

وحين تذكر السورة أمره هذا ﷺ فإنها تعتب عليه أنه تصدى لبعضهم ليؤمنوا!، وتعتبه على تأثره النفسي بإلحاح الرجل الأعمى طالب العلم والذي انعكس على وجهه ﷺ تقطيباً وإعراضاً لم يلاحظهما الضرير، وتحاسبه على انشغال غير متعمد عن صحابي يسأل عن أمر دينه بأمر من أمور الدين نفسه الذي حرص السائل على تعلمه لا بخصوصية من خصوصياته.. هل كان يفعل محمد ﷺ لو لم يكن نبياً.. علماً بأن المعارضة لم تنشر هذه القضية في حملتها المركزة على صاحب الرسالة لكيلا يُظن أنه ﷺ إنما خاطب نفسه بهذا العتاب ليبرىء ساحته ويصوّب ما أقدم عليه، فيتوصل بذلك إلى إثبات عصمته وتأكيد نبوته لأعدائه، كما أن المؤمنين لم تذكر الأخبار أنهم رضوان الله عليهم أحسوا بذلك، حتى لا يُظن أنه ﷺ قام بما يسمى بـ«عملية النقد الذاتي» ليكسب رضاهم وينتزع إعجابهم به وينال ثقتهم.

ثم إن الصحابي الضرير لم يقدم إليه ﷺ شكوى، ولم يبد بين المؤمنين اعتراضاً وعتاباً، فقد كان من المفروض أنه رضي الله عنه يقدر عمله في دعوة أصحاب المراكز أملاً في هداهم. . . نقول ذلك لئلا يتفلسف أحدهم فيزعم بأنه ﷺ أراد بتلك الآيات استرضاء الصحابي الساخط وتطييب خاطره، إنما هو الله تعالى يريد من نبيه ﷺ أن يوفق بين أمر الدعوة وتكثير المؤمنين وبين خطة الدعوة العامة في تزكية الأتباع. . ثم إنها النبوة وحفظ الذكر وتبليغ آياته وسوره وتثبيت موضوعاته مهما كان فيها عتاب له ﷺ.

وأشيع في أرجاء المدينة المنورة (حديث الإفك) تلك الإشاعة الظالمة التي شغلت بال الرسول ﷺ، وحزّت في نفسه، وأثّرت على حياته العائلية، وجرحت شعور أم المؤمنين عائشة في أخص خصائصها الكريمة، وآذت رجال الإسلام ونساءه في أعز إنسان يحبونه، وأهله وصحبه يتألمون من أذى صامت وأسى مكبوت، حتى نزل الوحي يقرر كذب ذلك الحديث، ويصمه بالإفك، ويثبت براءة عائشة رضي الله عنها، فلولا أنه الوحي من الله سبحانه لما تحمل تلك الأزمة النفسية، ولما فُسح المجال أمام المنافقين ينشرون قالة السوء ليضعفون بذلك الإرجاف ثقة المؤمنين به، ويمهدون لتمزيق الصف المسلم والإيقاع بين وحداته وفئاته، ولأصدر ﷺ بياناً عاجلاً يرد به عن المنافقين، ويقطع دابر الفتنة والمفتونين، ويبرىء أم المؤمنين وهو عليم بطيبتها، متأكد من عفافها، اختارها لنفسه على علم بمعدنها وكرم نسبها، ولبثت في بيت النبوة خمس سنين تذكر آيات الله والحكمة، وكانت قد دخلته صغيرة لم تطلع بعد على عورات الجاهلية، ولم تتشكل بتركيبها الاجتماعي، فتكونت أخلاقها وفق هدي الرسول ﷺ وتوجيهه، ولم يعلم عنها أي سوء قبل ذلك. . ولكن لكونه ﷺ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ [النجم: 3]، فقد تلبث وانتظر إلى أن جاءه الوحي بالحق معززاً لبراءتها، حاكماً بطهارة ثوب الصدِّيقة بنت الصديق.

فلو لم يكن محمد ﷺ نبياً فإنه ما كان ليضم هذه الآيات إلى القرآن الذي تتلوه قرون المؤمنين به آناء الليل وأطراف النهار، ويقرؤه الصديق والعدو في كل مكان، بل لطوى كل جزئيات القصة وحيثيات الحكم وقرار التبرئة في مطاوي النسيان، فلا يبقى للقضية خبر ولا يعثر إنسان غابر أو معاصر للموضوع على أثر، وذلك بدافع من الغيرة والتحفظ الإنساني الأصيل من نقاط الضعف والاشتباه بها.

4 - سمات خاصة له ﷺ والوحي

كان ﷺ يمتاز بخلق عظيم ومنه الحياء، حتى أنه كان لا يبيِّن بعضاً من شعوره بياناً محسوساً للآخر في كثير من حالات التأثر، إنما كان وجهه هو الوسيلة البيانية التي يدرك من خلالها من يصاحبه سر عواطفه وإحساساته تجاه المواقف التي يواجهها: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي ٱلنَّبِيَّ﴾ [الأحزاب: 53]، كما كان حساساً لما يشاع عنه: كما دأب على أن يشاور آله وأصحابه ولا يقطع عنهم برأي، وقد وصفت مرونته وتساهله ولينه في هذا الحديث: (ما خيّر في أمرين قط إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه، وما انتقم لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم)[1]، ولكنه كان حين يتلقى الوحي: (نراه يبلغ رسالته في ثقة وقوة لا تستطيع أية قوة في الأرض أن تضلله، ويقف موقف المعلم والمربي لجميع الناس، المتعلمين منهم وذوي الجهالة، ومنذ قبل الهجرة يعلن أن من «جوهر» رسالته أن يهدي شعب بني إسرائيل، وبوجه عام جميع الأمم التي تلقت ديناً «سماوياً»، وهو مكلف بأن يبلغهم الحق في منازعاتهم وخلافاتهم، وعندما يصدر حكمه لا يجامل فيه هؤلاء ولا أولئك،

(1) رواه البخاري: كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ، برقم: 3560، 3759، 6029، ومسلم برقم: 2327.

إنه يسير بخطوات ثابتة راسخة، فيفصل في الأمور ويعلن الحق)[1].

أي أنه كان يختار الوحي دائماً، ويوجه إرادته وعقله نحو الالتزام به وتبليغه، ولا بأس أن يكون ذلك على حساب شعوره ومنافعه وانفعالاته، إن بشريته هي التي تتكيف مع الوحي لا العكس، بينما نرى التفاعل مستمراً بين الآخر وما يدعو إليه من نظريات، وحين تخيرهم الظروف التي تواجههم بين التمسك بحرفية النصوص وبين الحسابات الآنية التي تدخل في معادلاتها، الزمن، الوسط، الإمكانيات المتوفرة، والمعارضة المستمرة، ورغبة الظفر، فإنهم يتنازلون عن النصوص بدعوى المرونة أو بعد النظر أو الإستراتيجية.

5 - بين القرآن الكريم.. وبين الحديث:

وبما أن الوحي: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: 42] لم يدخل ﷺ فيه أحاديثه وتقريراته، ورصد لتثبيت الوحي كتّاباً حاذقين، بينما أودع الحديث في الصدور، ونهى عن كتابته في السطور: «**لا تكتُبوا عني غير القرآن، ومن كتب عني غير القرآن فَلْيَمْحُه، وحَدِّثوا عني ولا حَرَج، ومن كذب عليَّ**[2] **مُتعمِّداً فَلْيَتَبَوَّأْ مقعده من النار**»[3]. . فلماذا خص آيات القرآن الكريم بالجمع والترتيب، وحث أصحابه وأمته من بعده على تلاوته وحفظه، وتحدى به - دون الحديث - كل بليغ وشارع وشاعر وأديب، مع أن كلمات الوحي والحديث كانتا تخرجان من فمه الطاهر متعاقبتين في زمان واحد ومكان واحد، وفي ظروف نبوية عملية ونفسية واجتماعية متشابهة بل واحدة؟.

---

(1) مدخل إلى القرآن الكريم، د. محمد عبد الله دراز، ص: 17.

(2) [قال همام: أحسبه قال: مُتعمِّداً، فَلْيَتَبَوَّأْ مقعده من النار].

(3) رواه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب التثبت في الحديث وحكم كتابة العلم، برقم: 3004.

5 - الوحي... والمذكرات:

ويزداد يقين الإنسان بالوحي حين يلاحظ أن لا أثر فيه لميل الرسول ﷺ للامتداد والخلود، فلو لم يكن وحياً يوحى لقصّ فيه بالتفصيل والأرقام قصة حياته، ظروف نشأته، ذكريات صباه، أمل شبابه، قضايا يومه، وأمور حياته، وتأثراته، ومشاريع غده، حوادث الدهر التي أثرت في صفحة نفسه أو شكلت خلقه الأصيل، أو أثارت عواطفه... ومعالم حياته التي تسمى السيرة الذاتية، وتفصيل حراكه السياسي والاجتماعي، وما مر به من صروف الزمان، وما كان له من المشاهد الكريمة قبل النبوة وبعدها، بالتفصيل، وسجل بين ثناياه تفصيل جهاده وخصائص أصحابه وميزاتهم النادرة ومواقفهم المذكورة ونشاطاتهم الصالحة وما اتسم به آله وأصحابه من السمات المرضية في السلم والحرب! جميعاً لا بعضها وحسب.. مع أننا نشهد أن الوحي لم يفصّل في ذكر حياته ﷺ والفضل التفصيلي للمؤمنين إلا للعبرة والوعظ والتفكير، بينما خُصت حياة بعض إخوانه من الأنبياء عليهم السلام بتفصيل أكثر.

فقصة موسى عليه السلام مثلاً يعرضها القرآن الكريم متصلة الحلقات، فيها أبرز المؤثرات الزمانية والمكانية التي ساهمت في صنعه أو مهدت لنبوته، وتلقي نوراً على رحلته الحياتية كلها، بدءاً من رصد شعور أمه غير المطمئن حين ولدته وانتهاء بتوجهه مع شعبه نحو الأرض المقدسة التي أمرهم الله سبحانه بدخولها. وقصة يوسف عليه السلام يخصص لها الوحي سورة كاملة من طوال السور، لتبين خطى النبي الكريم عليه السلام من مراتع صباه وملاعب طفولته عبوراً بالبئر، والقصر، والسجن، انتهاء بتبوئه خزائن الأرض وتسلمه لمقاليد الحكم في مصر، فالوحي ليس من تأليفه ﷺ يبغي به مجداً أو يرجو به ذكراً، وإن كان قد رُفع ذكره.

6 - الوحي... ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: 76]

يقول الدكتور «محمد عبد الله دراز» عن الوحي: «إنه يتحدث إلى الرسول ﷺ أو يتحدث عنه، ولا يتركه أبداً «يعبّر» عن فكره الشخصي، وفي كل جزء منه يتكلم الله تبارك وتعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ [الأنفال: 64].. ﴿يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ [المائدة: 41].. ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا﴾ [النساء: 163].. ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ﴾ [البقرة: 119].. ﴿أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: 151].. ﴿يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ﴾ [المائدة: 67]»، وحتى عندما لا يتضمن النص بعض علامات الأمر مثل سورة الفاتحة فكل شيء يدل عليها»[1].

وذلك يعلِّمنا بأنه إنما كان يتلقى ويبلغ؛ إذ لم نجد مؤلف كتاب أو قائد معركة أو زعيم أمة يخاطب نفسه بنفسه بخطابات مسموعة، أو يأمرها، أو يحاورها، أو يسألها بصيغ مقروءة، وبما أنه لم يكن مغلوباً على عقله فلا بد أن يكون نبياً أوحي إليه!.

7 - خطاب الوحي.. وخطاب الإنسان:

إن الخطاب الذي وجَّهه الوحي إلى الناس نجد فيه انعدام الأثر الإنساني فيه، فكل صاحب فكر أو رسالة في الحياة لابد أن يميل إلى فئة معينة من الناس، موافقاً لخصوصياتها، بينما نجد غياب ذلك الميل الإنساني في خطاب الوحي، فلا تجد فيها خطاباً موجهاً إلى الكادحين أو الرأسماليين أو المظلومين أو أهل مكة أو قريش أو العرب أو الشباب أو الذكور!.. إنما توجه خطابه إلى الناس كافة، وإن وجد فيه خطاب خاص للنبي ﷺ، أو نسائه، أو الذين آمنوا، فإن المراد منه تكليف المخاطبين بأمور تحتمها

(1) مدخل إلى القرآن الكريم، د. محمد عبد الله دراز، ص: 126.

أعمالهم في القيام بمقتضى منهاج الإيمان الذي ارتضوه طوعاً واختياراً. بينما نجد لدى موجِّه الخطاب الإنساني الإثارة النفسية للجماعة أو الفئة التي يميل لها ويرتبط بها عضوياً، أو منفعياً، أو نفسياً، ويعمل من أجل خلاصها وتطورها، وذلك لتحريضها وترغيبها.

8 - إعفاء الرسول ﷺ من العجلة

لقد كان ﷺ يعجِّل بالقرآن مسرعاً في عملية تذكرية تمثلت ظاهرياً في حركة مادية، وذلك بتحريك لسانه وشفتيه بالكلمات الموحاة إليه، وذلك يكشف عما كان في نفسه من الإشفاق على ضياعها منه إذا ما لم يعجل في حفظها واستيعابها، مع أنه لم يكن يفعل ذلك حين يتكلم ويطلق أحاديثه، فلم يكن ﷺ يحضر كلامه لا قبل النبوة ولا بعدها، ولا كان ذلك من عادة العرب المعاصرين له؛ إذ كانوا يطلقون كلامهم أرسالاً، وكانوا ينشؤونه في أنفسهم قبل إلقائه.. حتى نزل الوحي بهذه الآية: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: 114]، والآية: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ [القيامة: 16-17] وبذلك أعفي من آلية التذكر، ووكل الأمر إلى من: ﴿لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: 54].

وهذا التعجل في حفظ الوحي ينبىء بتميز هذا الوحي عن إلقاء «الحديث القدسي»، وعن الحديث، وعن التفكير الخاص له ﷺ.. تميزه عن ذلك كله تميزاً بيّناً... إنه كان شعوراً فريداً بالمسؤولية تجاه الوحي لتبليغه كما نزّل، وإلا فإن ضاع منه شيء فسوف يحاسب عليه، وليس له الحق في تقليده أو تبليغ تفسيره وحسب!!.

تفسيرات عصرية للوحي

لقد شاعت تفسيرات خاطئة متعددة للوحي والنبوة في كتابات المستشرقين والكتَّاب المتأثرين بالفكر اليوناني، وانتقلت تلك التفسيرات بفعل الترجمة إلينا مع اختلاف في رؤيتنا للكون والإنسان والحياة والأمور الدينية والظواهر المدنية، ومهما ادعى أهل الشرق والغرب ممثلين في كُتابهم أنهم موضوعيون يقيّمون الفكر ويفسرون الظواهر والحوادث والآداب والفن وأحداث التاريخ دون أي تأثر بالأهواء النفسية والإحساسات الوقتية والرواسب التاريخية، فإن العجز يلحق أكثرهم؛ إذ أن المناهج الفكرية والمصطلحات اللغوية والرؤى التاريخية قد استقرت في أنفسهم؛ فلا يستطيعون سبيلاً للتحرر منها شاؤوا أم أبوا، لذلك علينا أن لا نُخْدَع بكل ما نقرؤه، أو نترجمه، أو نستمعه، أو نظنه من «روائع الفكر العالمي» فالانفتاح العلمي على الآخر لا يغني عن الحذر.

ومما حاول الفلاسفة والمستشرقون تفسيره بمعطيات تاريخهم الديني أو الفلسفي، أو اختصاصاتهم العلمية المحدودة، النبوة أو الوحي، فذهبوا في تفسيرها مذاهب شتى متناقضة ومتعارضة أحياناً! وعوامل ذلك متباينة، إما لعدم إيمانهم بوجود الله سبحانه، أو وحيه لأحد من عباده، أو لتأثرهم بفكر ديني محرف فَسَّر الوحي تفسيراً يختلف عن الحق فيه.. حدث هذا بالأمس البعيد، ويحدث اليوم.. فلو ألقينا نظرة تاريخية على الحضارة الإسلامية في عهدها التقدمي حيث نشطت حركة الترجمة، لوجدنا أن تلك الحضارة ممثلة في روادها السابقين لم تجد من النصوص الأوروبية فيما يتصل بقضية النبوة سوى النصوص الفلسفية البعيدة عن الفكر الديني الصواب، فقد ضنّت المجامع الدينية - الكنسية ومؤسساتها العلمية بتقديم ما بين أيديها من النصوص الدينية - على علاتها - في ميدان الفكر العالمي المتلاقي، فبقيت

تلك النصوص معزولة عن التأثير في الفكر، ولما كان الفلاسفة أجهل الناس بالنبوة، أو متجاهلين لها لاغترارهم باجتهاداتهم الفكرية في أمور الغيب، فقد كانت تفسيراتهم للنبوة تفسيرات تتميز بالنقص والظن والخطأ، وتجد فيها إنكاراً لوجود الله سبحانه، أو إنكار أنه المهيمن على الخلق بعد خلقه، وحين اطلع فلاسفة المسلمين على آرائهم وتفسيراتهم تلك، تأثروا بها، ووزنوا بها نبوة محمد ﷺ، أي فسروها: «على أصول قوم لم يعرفوا الأنبياء عليهم السلام»[1]، كما قال ابن تيمية، فوقعوا في الخطأ المبين؛ فالفارابي جعل النبوة من جنس المنامات!. أما ابن سينا فقد قال: إن النبوة من القوى النفسية الداخلية، وذهب إلى أن الأنبياء عليهم السلام متميزون بخصائص ثلاث:

أولاً: نيل العلم بلا تعلم مع إغفال تعليم الله سبحانه، وسمى تلك الخصيصة بالقوة القدسية.

ثانياً: القوة الخيالية: أي أن يتخيل في نفسه ما يعلمه فيرى في نفسه صوراً نورانية ويسمع في نفسه أصواتاً كما يرى النائم في نومه صوراً تكلمه ويسمع كلامهم وذلك موجود في نفسه لا في الخارج.

ثالثاً: أن تكون له قوة يتصرف بها في سنن الكون وقوانينه[2]، هذه صورة تاريخية ومثال للتأثر بالفكر الفلسفي والعلمي في تفسير النبوة، لها أشباه ونظائر في واقعنا القريب، حين تأثر بعض علماء المسلمين بالفكر الأوروبي القائم على أسس حسية وضعية، بعد عملية التواصل الفكري في بداية هذا القرن بين الشرق والغرب.. وسنبين أبرز التفسيرات التاريخية والمعاصرة للوحي والنبوة، ثم نظهر بإذن الله سبحانه تناقضها مع الواقع التاريخي والحق وملابسات الوحي.

---

(1) النبوات، ابن تيمية، المطبعة السلفية بالقاهرة، ص: 25.

(2) المصدر نفسه، ص: 34، 181.

1 - التفسير الديني «الكتابي»:

جاء في الجزء الثاني من الكتاب المقدس طبعة اليسوعيين (ص: 863) ما يلي:

«يطلق النبي عند اليهود على كل كاتب مُلْهَم، فيدخل في ذلك موسى وصموئيل، أما في عرف الكنيسة فيراد به من صدق عليه وصف النبوءة من حيث معناها الوصفي، أي الإنباء اليقين بحوادث آتية لا يمكن أن يهتدى إليها بأسبابها ومقدماتها بمجرد العقل، وهذا التفسير الديني مستمد من المفاهيم «السوقية» المستفادة من المخطوطات الإسرائيلية التي كانت المصدر الوحيد للمعلومات الرئيسة عن الحركة النبوية في القرنين السادس والسابع قبل الميلاد، حيث أطلق مصطلح الأنبياء على الكهان والعرافين وأهل الكشف المتكاثرين في بيت المقدس». ولقد حذَّر أنبياء بني إسرائيل أقوامهم من الانخداع بهؤلاء «الأنبياء» الكذبة، ولكنهم اضطروا إلى تسميتهم بالأنبياء لعدم وجود مصطلح اشتقاقي في لغتهم يناسب مسماهم.

وجاء في قاموس الكتاب المقدس، وضع الدكتور «جورج بوست»، سنة 1894 في تفسير الوحي ما يلي: «حلول روح الله في روح الكتَّاب الملهمين لاطلاعهم على الحقائق الروحية والأخبار الغيبية، من غير أن يفقد هؤلاء الكتاب بالوحي شيئاً من شخصياتهم؛ فلكل نمطه في التأليف وأسلوبه في التعبير». وهذا التفسير الكتابي للوحي لاينطبق مع الحق ولا مع وحيه ﷺ، ويلحق تحريفاً بالوحي، ذلك أن:

1 - الوحي هنا يتم بحلول روح غامضة سموها روح الله أي امتزاجها بروح المتلقي للوحي حتى لا يكادان ينفصلان أو يتباينان، بينما الوحي الحق كله وكذلك المنزل على الرسول محمد ﷺ لم يكن هناك حلول!، والبرهان على ما ذكرناه:

أ - ما كان يجده الرسول ﷺ من ألم التلقي الخارجي وثقل التنزيل حتى كانت: «راحلته تبرك به إلى الأرض إذا كان راكبها... ولقد جاءه مرة كذلك وفخذه على فخذ زيد بن ثابت فثقلت عليه حتى كادت ترضها»[1].

ب - ما كان يسمعه ويراه خارج نفسه لا داخلها من الوحي؛ فأما سماعه للوحي خارج نفسه فبرهان ذلك ما رواه عمر رضي الله عنه: «كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي يسمع عند وجهه كدوي النحل»[2]. وأما رؤيته أحياناً للملك الذي يتلقى عنه فيبينه قوله ﷺ عن الوحي: «أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده عليّ، فيفصم عني وقد وعيت ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول»[3].

ج - إن الموحى إليه وهو النبي محمد ﷺ كان في أمر الوحي يتيقن أنه مفروض عليه بلا إرادة منه ﷺ.

2 - إن الموحى إليه بالتفسير الكتابي حر في تشكيل الوحي الداخلي حسب رأيه في التأليف والتقسيم والتقديم والتأخير، بينما لم تكن للنبي محمد ﷺ أية إرادة في تبديل الوحي الذي كان ينزل عليه، لا لفظاً، ولا تفسيراً، ولا ترتيباً، ولم يكن عمله سوى البلاغ: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [يونس: 15].

أما محذور تفسير النبوة بذلك التفسير فهو في تأكيده على أن الوحي يمكن أن ينزل على الكتّاب والملهمين في كل حين، ويمكن أن يدخل بين

(1) زاد المعاد لابن القيم، ج1، ص: 25.

(2) أخرجه الحاكم في مستدركه، للتحقق راجع طبعة دار الكتب العلمية، بتحقيق عبد القادر عطا، المجلد 1، ص: 717، قال فيه الذهبي: صحيح في مسند أحمد.

(3) رواه البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، برقم 2.

أولئك الملهمين رجال الدين البارزين، ولعسر التفريق العلمي بين الإلهام الديني والإلقاء الشيطاني... وبذلك قد يحرف الكتاب إذ يصير بإمكان أي رجل دين أو صاحب رياضة روحية أو تجربة دينية أن يدّعي قراءة أخرى للنص أو ترجمة متغيرة له، وحينذاك لا يستقر الناس على منهاج ديني واحد بل تتعدد المناهج والعقائد والتشريعات الدينية، تبعاً لتعدد التجارب والمحاولات الدينية، بل قد يأتي بعضهم بالتجارب الدينية منفصلة حتى عن الإيمان بالله سبحانه، كما فعل «وليم جيمس» صاحب فكرة تعدد التجارب الدينية المستقلة عن الإيمان ومنهاجه الثابت في القرآن الكريم... وأخيراً سيتحطم الالتزام الديني المستمد من تلك التجارب ما دامت منعزلة عن الإيمان بالله والدار الآخرة إذ لا يثبت أصحابها في وجه فتنة الحياة وتياراتها المتشاكلة. ورغم حفظ الله سبحانه للوحي لم يخل تاريخ المسلمين ممن أنكر ختم النبوة ومنهم البهاء وميرزا غلام أحمد القادياني.

2 - التفسير النفسي:

يفسر بعض علماء النفس الوحي بمظاهره الخارجية ويعزونه إلى:

1 - تركيز اليقظة في فكرة واحدة أو مجموعة محدودة من الفِكر.

2 - الغيبة وهي محو النفس أو تحويلها، وفي الوقت نفسه يكون الجهاز العصبي في حالة شاذة إذ يتميز بتوقف الإحساس والحركة توقفاً قد يكون تاماً[1].

ولكن حالة الرسول ﷺ أثناء تنزل الوحي عليه لم تكن تطابق هذا الوصف التفسيري، ولم تتوافق معه من كل جوانبه:

1) كان الوحي يتنزل عليه ﷺ في كثير من الأحيان وهو في حالة قيام

(1) العلم والدين في الفلسفة المعاصرة، إميل بوترو، ص: 146.

عملي بشأن من شؤون الحياة اليومية في الحرب والسلم، في الشارع والبيت، في الوحدة وفي المجالس الخاصة والعامة، أي أنه لم يكن ليركز يقظته في فكرة أو فكَر ما فيأتيه الوحي، بل كان الوحي يفجؤه ويباغته دون تهيىءٍ منه أو تفكر فيه، بل إنه لم يفكر في موضوع الوحي يوماً: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [القصص: 86].

2) لم يحدث له ﷺ أثناء تلقي الوحي ما سماه علماء النفس بالغيبة، أي فقدان الشعور والحضور الفكري، كما لم يتوقف جهازه العصبي عن الحس والحركة. فأما كمال وعيه وشعوره عند التلقي، فبرهانه عليه قوله ﷺ: «. . . **فيفصم عني وقد وعيت ما قال. . يتمثَّل لي الملك رجلاً، فيكلمني فأعي ما يقول**». كما ذكر أنه كان يحاول حفظ مايتلقّاه في لحظات التنزيل، أي أنه كان يتمتع بجهاز عصبي قادر على التحكم، وأنه لم يكن غائباً عن الوجود!

3) إن الوحي مرَّ بالأنبياء عليهم السلام في ظروف موضوعية وتاريخية خاصة؛ فنحن ملزمون بالبحث عن كل شيء يتعلق بالنبي، وموضوع الوحي، والملابسات التي صاحبت نزوله، دون الاكتفاء بشهود الشكليات الخارجية لبعض الظواهر الدينية التي تتباين مع وحي الرسول ﷺ، ثم تعميم الأمر على جميع الظواهر الدينية الأخرى.

أما اللاشعوريون من علماء النفس، فيظنون بأن الوحي: قذف لا شعوري، ولا وحي منزل، ويقولون بدون برهان: «كل من يظفر عن مزاج هذا الشخص وأفكاره المكتسبة وتجاربه الشخصية وأحواله (أي الشخص الموحى إليه) بمعرفة كافية، فلن يجد في اعتقاداته وإلهاماته والرؤى التي يراها أي جديد أو معجز، ذلك أن الأمور التي تبدو للإنسان فائقة على «الطبيعة»، إنما تصدر رغماً عنه من أغوار ذاكرته»[1]، وقد ذهب العالم النفسي اليوناني

(1) العلم والدين، ص: 148.

«تانكراس» إلى أن: «تحقيق النبوات ربما يكون مرتبطاً ارتباطاً مباشراً بحقل القوى التي يرسلها ما دون الوعي إلى بعض الكائنات البشرية أو إلى بعض الأغراض»[1]... ولكن وحي الرسول ﷺ يرد هذا التفسير اللاشعوري، ذلك لأن الوحي في القرآن ذكر أموراً حديثة وسابقة للزمن، وأخباراً مجهولة لمعاصريه، غير معروفة في وسطه، ولا يعقل أن تكون كل هذه الموضوعات مخزونات لا شعورية خارجة من أغوار ذاكرته، لأن ذاكرته لا يمكن أن تجمع إلا أخباراً وعلوماً مكتسبة، فالعلوم لا تنقل بالوراثة وإنما بالاكتساب.

وحين يثبت لدينا أن الوسط الاجتماعي كان جاهلاً بما في الوحي من حق علمي؛ إذ أن بعضه لم يعرف إلا في القرن العشرين، وأنه ﷺ لم يتلق أحداث الماضي لينبىء بنبئها، بل إنه صوّب كثيراً من الاختلافات الكتابية في كلياتها وجزئياتها، كما أنه بلّغ مجموعة من أمور الكتاب والإيمان كان يجهلها قومه ومعاصروه وهو كذلك من قبل... تبين لنا أن القرآن الكريم ليس وحياً داخلياً نفسياً مأخوذاً من تعليم سابق مختزن في اللاشعور!.

3 - التفسير العضوي:

وقد حاول بعض المفكرين الغربيين تفسير الوحي تفسيراً عضوياً صحياً أو مرضياً، فأما الصحي منهما فهو جعله أثر «العيون والأذان الداخلية»، أو «الغريزة القوية»، أو «البصيرة النافذة»، إذ يقول: ت - مايلر: «إن الوحي يكون مفهوماً لو قلنا عنه أنه ضوء البصيرة الداخلية»[2]، ويقول توينبي: «إن المشاهدة القابلة للفهم على السطح الشعوري من اللاشعور تسمى النبوة»[3]،

(1) جدلية القرآن، د. خليل أحمد خليل، دار الطليعة بيروت، ط1، سنة 1977، ص: 20.
(2) الدين في مواجهة العلم، ص: 66.
(3) نفس المصدر، ص: 65.

ويرى محرر دائرة معارف العلوم الاجتماعية أنه يمكن تشبيه الدين بالفن؛ فكما أن بعض الناس يتمتعون بقوة غير عادية في التذوق الفني كذلك ينفرد بعض الناس بخصائص العيون والآذان الداخلية، يلتقطون بها ما لا يتمكن الإنسان العادي سماعه، أو رؤيته. والوحي عند «ألكسيس كاريل» هو نتاج الغريزة: «أما العالم النابغة فيسلك بالغريزة الطريق المؤدي إلى الاكتشاف، ولقد كان يطلق على هذه الظاهرة اسم الإلهام أو الوحي في الأزمنة السابقة»[1]، ويقول كذلك: «بعض الأشخاص يرون حوادث وقعت فعلاً في الماضي أو ستقع في المستقبل، ويجب أن نلاحظ أنهم يدركون المستقبل بنفس الطريقة التي يدركون الماضي ولكنهم يعجزون عن تمييز المستقبل من الماضي... يبدو أن وجوهاً معينة في نشاط الشعور تسافر فوق الفراغ والزمن»[2].

وهذه التفسيرات فضلاً عن أنها وضعية لا حجة لها من النص الديني والعلمي فإنها لا تفرق بين الإلهام الفردي أو التنبؤ وبين الوحي، ونعيد هنا ونكرر أن هذا الوصف التفسيري للوحي ليس هو تفسير الأنبياء عليهم السلام حين تأثروا بالوحي؛ فقد رأى محمد ﷺ الملك بعينيه وتلقى عنه: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ [التكوير: 23]، وليس من حقنا أن ننكر على إنسان متمتع بكامل قواه العقلية والجسمية والعاطفية، من وعي وحضور عقل وفكر وإرادة، رؤيته وتلقيه الخاص لا لسبب إلا لأننا لم نمر بما مر به: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ [النجم: 12] أو يفسر أحدهم الأمر كما يظن أو يهوى..

أما التفسير المرضي فهو من أبعدها عن العقل العلمي والديني؛ فإذا لابس الوحي بعض الآثار الجسمية والعصبية والنفسية فقد فسره بعض المستشرقين على أنه ثمرة نوبات الصرع، قال به أمثال «نولدكه وسبرنجر»،

(1) الإنسان ذلك المجهول، ألكسيس كاريل، ص: 146.
(2) نفس المصدر، ص: 87.

بينما زعم «سنغله» أنه أثر رؤى رآها محمد ﷺ لضعفه الشديد من الجوع! ورد آخرون قائلين: لا... إنما هو منفصم الشخصية، وكان تناقضهم برهاناً على عجزهم الفاضح عن العثور على التفسير الحق للوحي، أو عدم اعترافهم به.

أما نوبات الهستيريا فيكفي في الرد على القائل بها قول «سنوك هرغرنجه» حين قال: «يجب أن نقرر أن قيمة محمد ﷺ إنما هي في ما يميزه عن سائر الهستيريين».

أما قصة رؤى الجوع فإننا نترفع عن الحديث عنها لأنها من سقط الكلام فإذا كان كل من جاع يوماً أو تأخرت عنه وجبة طعام أخرج كتاباً معجزاً، لضاقت الدنيا بالمعجزات!.

أما ازدواج الشخصية الذي فسر به بعضهم تنزل الوحي لما كان فيه من الحوار بين محمد ﷺ وبين الملك فإنه غير مقبول بمنطق التاريخ ولسان العقل وذلك، **أولاً**: لو كان محمد ﷺ مزدوج الشخصية وكان حواره مع الملك جبريل في بدء الوحي حواراً مع نفسه أو «شخصيته الثانية» المستولية على حسه ونفسه لكان استمر ذلك الحوار المسموع في كل الحالات، ولكن ذلك لم يحدث إذ لزم الصمت بعد المشهد الأول من الوحي. **ثانياً**: لو كان ﷺ مزدوج الشخصية لغاب عن واقعه المشهود وتفاعل مع تلك الشخصية المزعومة، تكلماً وضحكاً وبكاءً وسؤالاً وجواباً، ولاندفع في بعض الأحيان تحت تأثير تلك الشخصية للقيام بأعمال غريبة أو مضرة عدوانية، أو عديمة المعنى.. ولاختل نشاطه العقلي وعجز عن القيام بأموره المعاشية فضلاً عن أن يتمكن من تعليم قرن وهدي أمة وبناء دولة.

ثالثاً: لم يكن من آثار مزدوجي الشخصية يوماً ما شريعة محكمة مفصلة كآيات المواريث مثلاً أو قصة مؤثرة كقصة يوسف عليه السلام، أو سورة طويلة معجزة «لفظاً ومعنى» كسورة الأنعام!.

رابعاً: إن الهذيان الذي يصدر من مزدوجي الشخصية تصحبه أعراض غريبة مثل إطلاق الأصوات والصراخ والعويل، وذلك ما لم يحدث لمحمد ﷺ حتى في أشد صور تنزل الوحي عليه وأثقلها على نفسه.

خامساً: إنما يخرج من أفواه المصابين بذلك المرض «انفصام الشخصية» هو: خليط من الكلمات غير الكاملة، والجمل غير المترابطة، والمعاني غير المتلائمة، وهي تنشأ من جراء شخصيات متصورة تحاول التأثير على المريض بتهديده بإلحاق الأذى به، أو قتله أو الاستهزاء به... إلخ، في حين نرى القرآن كله من أوله إلى آخره كوحدة موضوعية معجزة البيان، تخاطب إنساناً يفترض أن يكون في أحسن حالاته صفاءً، حساً وعقلاً وشعوراً.

أما حالات الصرع، فندع الرد عليها للعلماء والأطباء، يقول: «د. ف. بودلي» في كتابه «الرسول - حياة محمد ﷺ»: «يذكر الأطباء أن المصاب بالصرع لا يفيق وقد ذخر عقله بأفكار لامعة وأنه لا يصاب بالصرع من كان في مثل الصحة التي كان يتمتع بها محمد ﷺ حتى قبل مماته... وما كان الصرع ليجعل من أحد نبياً أو مشرعاً.. وما رفع الصرع أحداً إلى مراكز التقدير والسلطان يوماً. وكان من تنتابه مثل هذه الحالات في الأزمنة الغابرة يعتبر مجنوناً أو به مسّ من الجن، ولو كان هناك من يوصف بالعقل ورجاحته فهو محمد ﷺ!»[1].

ويقول أحد الأطباء: «إن الهلاوس والأحلام التي تمر بذهن مريض الصرع ما هي إلا أجزاء من ذكريات قديمة نبهتها النوبة، ولا يمكن للمريض بالصرع أن يؤلف أثناء النوبة شيئاً... لا يمكن أن تتحسن لغة المريض بالصرع أثناء النوبة وبعدها لأن هذا التحسن يحتاج إلى تعليم، والصرع ارتباك مفاجئ في كهرباء المخ ووظيفته، وقد نزل القرآن بلغة عربية فصحى لم

(1) الإسلام والعلم الحديث، عبد الرزاق نوفل، ص: 57.

يتعلمها النبي ﷺ قبل الرسالة. . . الأحلام والهلاوس التي يشعر بها المريض في أثناء النوبات الصرعية تتكرر بعضها أو كلها بنفس الشكل بتكرار النوبات، كما أن المريض لا يمكن أن يصفها وصفاً دقيقاً، أما القرآن الكريم فأنزلت آياته واضحة محدودة متممة بعضها بعضاً شاملة لكل ما يهم الناس في شؤون دينهم ودنياهم». .[1]

ويقول: «إميل درمنجم» في كتابه «حياة محمد» ﷺ :

«لم تنشأ رؤى محمد ووحيه عن مرض فيه، بل كانت تبدو عليه علائم المرض بسبب الرؤى والوحي. . . والحق أن محمداً ﷺ كان مبرءاً من مثل هذه الأمراض على الدوام؛ فقد كان تام الصحة إلى أن بلغ سن الكمال، ولم تبدأ العوارض عليه بعد هذه السن إلا عند تقبل الوحي»[2].

ويقول الدكتور «محمد عبد الله دراز»:

«نرى المباينة التامة والمناقضة الكلية بينها «أعراض الوحي» وبين تلك الأعراض المرضية والنوبات العصبية التي تصفرّ فيها الوجوه، وتبرد الأطراف، وتصطك الأسنان، وتتكشف العورات، ويحتجب نور العقل، ويخيم ظلام الجهل لأنها كانت كما علمت مبعث نمو في قوة البدن، وإشراق في اللون، وارتفاع في درجة الحرارة»[3].

4 - تفسيرات عصرية أخرى:

ظهرت في العصر الحديث تفسيرات غريبة للظاهرة الدينية والوحي نذكر منها التفسير الذي عرضه من منظور فيزيائي «ستيفان لوبسكو» في كتابه الذي

(1) المصدر نفسه، ص: 58 - 61.
(2) حياة محمد، ترجمة عادل زعيتر، ص: 212.
(3) النبأ العظيم، د. محمد عبد الله دراز، ص: 64.

نشره في باريس سنة 1960، فقد ذهب إلى أن سر النبوة يكمن في العثور على مفاتيح: «منطق الطاقة الجدلي المتعدد الذي يشكل جهازاً للرصد والتدخل، ويقدم للخيار تشكيلة كاملة من الأخلاقيات، فمن تمكن من استلام مقاليد هذا المنطق، يكشف ويبدع وربما يكتنه كل شيء!»[1].

أما العلماء السوفيات فقد افترضوا ثنائية الجسد أي: «أننا لا نملك جسداً واحداً، وإنما نملك جسدين، الجسد الفيزيائي والجسد الطاقة أو الجسد الكوكبي... وأن هذا الجسد الوحيد في التصور القديم إنما هو مشحون بالطاقة من داخله وخارجه، يولّدها ويستولدها، يفعّلها ويتفاعل بها»[2]... بينما يعتقد «كوزيريف» بأن: «الزمن هو شكل الطاقة المسؤول عن الظواهر شبه المعقولة، فالزمن هو في آن واحد في كل مكان»[3].

وهذه التفسيرات العصرية لم تصب في تعريف النبوة والوحي، وليس من شأنها: «ترتيب مفهوم جديد للنبوة» كما زعم بعضهم؛ فالنبوة بمعناها الإسلامي قد ختمت ببعثة النبي الخاتم ﷺ، أما أمرها فهو معلوم مستنبط من القرآن الكريم والسنة... أما محاولة تجديد «مفهوم» النبوة فهي ليست إلا وليدة الفكر العلماني أو الإلحادي الذي يفسر كل الظواهر الإنسانية والكونية والحياتية تفسيراً يستبعد خلق الله سبحانه لها وصنعه إياها؛ فهو لا يؤمن بالنبوة والوحي والمعجزات؛ إذ يرى فيها خرقاً لِ «قوانين الطبيعة» وتجاوزاً على شروط الزمن والمكان وفضائهما، ولا يقدر الله حق قدره.

ولكن ما أجرى من التجارب العلمية في مجال ملكات الإنسان وقواه غير

(1) جدلية القرآن، ص: 20.
(2) نفس المصدر، ص: 21.
(3) نفس المصدر.

المنظورة قلب معادلات الماديين رأساً على عقب، فاليوم تجرى في بلد كالاتحاد السوفياتي محاولات علمية عديدة لدراسة بعض المواهب والطاقات الخفية الغيبية التي يملكها بعض الأشخاص، كالقدرة على التخاطب بالفكر، أو الرؤية عن غير طريق العين، أو التأثير في المادة عن طريق الفكر، أو التخاطر وسبق العلم بالأشياء، وتحريك بعض المواد بقوة الفكر، وكل ما استطاعته تلك المحاولات التي يشرف عليها علماء كبار ذوي اختصاص في «البيوكيمياء» و«الجيوفيزياء» وعلم النفس والفلسفة، هو إثبات وجود هذه الملكات والقوى في بعض الأفراد إثباتاً علمياً، ورصد الآثار الجسمية والانفعالية التي تصاحب أو تعقب تعبيرهم عنها كالنشاط غير العادي جداً[1] أما خصوصية هذه الطاقات وتحديد مصدرها وكيفية عملها فكل ذلك يلفه الخفاء ويندرج مع الظواهر غير المرئية الخارجة عن حدود التصور المادي للتاريخ الواقعة خلف الأسوار الحسية أو الآلية لإثبات وجود الأشياء والقوى، ووضع التعريفات المحددة لها واستنباط القوانين البيّنة الثابتة لحركتها.. بل إن مجرد البحث «الأكاديمي» في مثل هذه الظواهر يعد تراجعاً وهجراً للمنطلقات الفلسفية للتصور المادي عن العالم، وتوغلاً في التصورات الغيبية أو المثالية؛ إذ أن هذه الظواهر «فوق الطبيعية» أو «الميتاعادية» أو «الباراسايكولوجية» لا تثبت ماهيّتها حسياً أو تجريبياً، إنما تحس آثارها وتشهد نتائجها فقط!!.. فمثلاً كان «إنجلز» يقول: «يشكل العلم الروحاني الخرافة الأكثر وحشية بين المعتقدات الباطلة»![2].. وكانت الموسوعة السوفييتية تعرِّف التخاطر بأنه: «وهم مثالي لا اجتماعي بصدد قدرات الإنسان

(1) انظر كتاب «علم النفس الحاسة السادسة»، تأليف شيلا أوستراندر، لين شرودر، ط2، سنة 1981، نشر دار الطليعة بيروت، ففيه أمثلة كثيرة وتجارب علمية عديدة في هذا المجال.

(2) نفس المصدر، ص: 86.

فوق الطبيعية»[1]. . واليوم يشرف على الدراسات الروحية علماء طبيعة وعلماء حياة بارزون، وجمعيات علمية مثل «الجمعية السوفياتية والعلمية والتقنية للتكنولوجيا الإشعاعية والاتصالات الكهربائية».

وعلى سبيل المثال يقول د. «ترلتسكي» أستاذ كرسي الفيزياء في جامعة موسكو سنة 1968: «هل من الممكن أن توجد قوى (ما) لا هي بالكهرطيسية ولا بالجاذبوية وقادرة في الوقت نفسه على تحريك الأشياء. . أعتقد بصفتي «فيزيائياً» إن احتمالاً كهذا وارد»[2].

وبعد كل هذه الاعترافات العلمية والدراسات الأكاديمية للظواهر والقوى غير المنظورة يمكننا أن نسأل: هل يمكن تفسير وحي الأنبياء عليهم السلام وما تحقق على أيديهم من معجزات على هذه الظواهر العصرية؟. . . إن مقارنة علمية بين الآخرة والأولى لتبين لنا الحق المستبين:

أولاً: إن ما يملكه هؤلاء من قوى غير عادية؛ سواء أكانت تنبؤية أو تخاطرية أو تأثيرية غير مألوفة في الأشياء إنما هي قوى موروثة نُميت وقويت بالتعلم والتدرب أو الرياضات الفكرية والروحية كالتأمل وتركيز الفكر وإخلائه وتجريد الإرادة. .إلخ، أما الأنبياء عليهم السلام فإنهم لم يقوموا بدراسة ما أو رياضة ما لاكتساب علم أو تنمية ملكات يملكونها، إنما أظهر الله تعالى لهم بعض العلم أو قدر على أيديهم الآيات.

ثانياً: إن الأنبياء عليهم السلام خافوا أو في الأقل لم يتوقعوا أن ينزل عليهم علم غيبي أو تقدر على أيديهم آيات «معجزات» ما، وحين كان ينزل الوحي أو

(1) انظر كتاب «علم النفس الحاسة السادسة»، تأليف شيلا أوستراندر، لين شرودر، ط2، سنة 1981، نشر دار الطليعة بيروت، ففيه أمثلة كثيرة وتجارب علمية عديدة في هذا المجال. ص: 81.

(2) نفس المصدر، ص: 124.

تتحقق المعجزة فإن الأنبياء عليهم السلام كانوا يَكِلُون ذلك إلى الله تعالى لا إلى أنفسهم وقواهم.

أما أصحاب الملكات غير العادية فلا يظهرون أي نوع من العجب مما يأتيهم لأنه لا يأتيهم بغتة إنما يتعلمونه أو يكتسبونه بالتعود أو يوحي إليهم أولياؤهم من الشياطين، وهم لا يزعمون أن الله تعالى هو الذي يوحي إليهم إنما يرجعونه إلى قواهم.

ثالثاً: إن كل ما أخبر به الأنبياء عليهم السلام من العلم الغيبي، وجميع ما أيدوا به من المعجزات، كان حقاً، بينما يختلط ما ينبىء عنه سواهم بكثير من الظن والكذب والغموض وفقدان الترابط الموضوعي والتبيين الإخباري، هذا في الجانب النظري، أما في الجانب العملي فإن أعمالهم الخارقة ظاهرياً قد لا تكون حقاً، إنما يتصورها المشاهدون كذلك لما يحدث معهم من التخييل والتأثير على الأعين والشعور والتصورات.

رابعاً: إن الأنبياء عليهم السلام تحدوا الناس بآياتهم أو وحيهم أن يأتوا بمثلها فعجزوا، أما أصحاب القوى غير العادية فإنهم لا يتحدون أحداً ولا يعجزون.

خامساً: إن أصحاب هذه الملكات ليسوا بدعاً من الوجود، والظواهر التي تظهر على أيديهم ليست بالظواهر المستحدثة المبتدعة؛ فقد شهدت سائر العصور تواجد أمثالهم، وكان يطلق عليهم تسميات مختلفة حسب تنوع ما يتمتعون به من طاقات غريبة كالتنبؤ، أو الإخبار عن الغيب، أو القيام بأعمال خارقة ظاهرياً؛ فكانوا يُسمون بالكهان، والعرافين، والسحرة... ومع ذلك فإن الناس تاريخياً قد فرقوا بجلاء بين الأنبياء عليهم السلام وبين هؤلاء؛ فلم يتبع الآخرين أحد من الناس إنما كانوا يلجأون إليهم في بعض الأمور الطارئة، بينما اتبع الكثير من الناس الأنبياء عليهم السلام ووحيهم وحكّموه في حياتهم، ومات

بعضهم في سبيلهِ، وكثيراً ما استجاب أصحاب هذه الظواهر أنفسهم للأنبياء عليهم السلام وكفوا عن نشاطاتهم غير الشرعية كما حدث لسحرة فرعون.

سادساً: إن أصحاب هذه الظواهر إنما يتكسبون بملكاتهم ويقدمون خدماتهم للآخرين مقابل أجور معلومة، هكذا كانت طريقتهم في الحياة قديماً وحديثاً.. بينما لم يبتغ الأنبياء عليهم السلام من الناس جزاءً ولا شكوراً، ولم يسألوهم أجراً، ولم يكلفوهم مغرماً، ولم يسعوا إلى عرض قريب أو مغانم.

سابعاً: لقد ختمت النبوات ببعثة النبي الخاتم محمد ﷺ، أي أن النبوة منقطعة منتهية؛ إذ لم يجرؤ أحد على ادعائها بعد النبي محمد ﷺ ثم أفلح في مسعاه.. أما الكهان والعرافون والسحرة فلا يزالون متكاثرين متواجدين في كل أرض وحين.

ومع هذه الفروق والتباينات فإن مما يميز الأنبياء والرسل عليهم السلام منهاجيتهم ورساليتهم، مقابل لا منهاجية ولا رسالية أصحاب الملكات، والتزامهم الأخلاقي مقابل اتباع الهوى والرجم بالغيب كثيراً من الأحيان من هؤلاء.

أما تفسير الوحي بالأسماء الفضفاضة مثل«منطق الطاقة الجدلي، أو الجسد الكوكبي، أو الزمن»، فإنما هو من العجز العلمي؛ فما هو منطق الطاقة الجدلي؟. إن الطاقة بتعريفها العلمي لم تكشف إلا في العصر الحديث، أما منطقها فلما يكشفه بعد أحد، وإلا لكان لوبسكو عالم الفيزياء أحق من غيره بتلقي وحيه وسره، لا الأنبياء عليهم السلام الذين ظهروا في عصور ما قبل اكتشاف الطاقة ومنطقها الخارق!، فهل يا ترى أوحي له ولغيره من العلماء شيء من خارج وعيهم؟ أم أنهم توصلوا إليه بإعمال العقل، والانتفاع من العلم المتوارث؟!.

والجسد الكوكبي الذي افترضه العلماء أين هو؟ من رآه؟ ولماذا لا يوحي إلى الجسد الفيزيائي لكل إنسان، فيصيروا ملهمين؟.

أما الزمن فهو أكثر الآلهة العصرية اتساماً باللاوجود والعدمية، وإذا ما عز على عقل «كوزيريف» أن ينسب الظواهر الخارقة إلى قوة محدودة عادية الحضور والإمكانات والوجود، فليؤمن بالله الذي هو الأول والآخر، والظاهر والباطن: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: 50].